إغتراب

الأمير فتحي عزام

obeikan.com

obeikan.com

في تمام الساعة الثامنة، من مساء يوم الجمعة، بقطاع غزة المحاصر من قبل الكيان الصهيوني، جلس أبو مازن وبجواره صغيريه، يشاهدان نشرة الأخبار على قناة الكيان الصهيوني، يحاولان اكتشاف ماذا يخبئ لهم العدو غدًا.

فأبو مازن رجل تخطي الأربعين من العمر، ويتحدث كثيرًا من اللغات يطالع الأخبار، يستكشف العالم الخارجي له؛ كي يعلم موضعه منه، بل موضع دولته غير المعترف بها، بين أجناس البشر.

أخبار كثيرة تدل على حال الشعب الفلسطيني، الذي اندثر تحت خطابات الزعماء.

لكن الخبر الذي جعل الوالد يبكي بحرقة؛ بل أنه انتفض وبكت كل خلايا جسده (مقتل إرهابي عند أحد المعابر بين غزة والقدس علي يد الجنود الإسرائيليين)

ـ المدعو أحمد سالم ــ تم قتله اليوم عند معبر حاجز حوارة، وعند تفتشيه؛ وُجِدَ حول جسده حزامًا ناسفًا، كان ينوي تفجير نفسه عند الحاجز، وقتل الجنود الإسرائيليين الباسلون التي تحمي عرين دولتنا المجيدة، دولة اليهود إسرائيل.

نظر الوالد إلى صغيريه، وأشار بإصبعه إلى صورة أحمد المقتول، وبجواره الجنود يهللون لمقتله؛ ليخبر أولاده أنه هو أحمد الشاعر، الذي كنت أحادثه بالأمس، أنا من طلب منه أن يذهب إلى هناك، لقد قتلته..... قتلته.....

ثم استطرد وعلامات التعجب تحيط به قائلا: لكنه ليس إرهابيًا، من أين أتي بالحزام الناسف؟! هناك خطأ ما لا أفهمه... ماذا يحدث؟!!

ولجت زوجته السيدة أم مازن وهي تصيح:

ما بالك يا رجل ما كل هذا الضجيج؟

انظري إلى التلفاز أنه أحمد لقد قتلته..... قتلته...

هل حقًا تعرفه؟! هل تعرف من يفجرون ويقتلون ماذا يحدث؟ ألم تخبرني مرارًا أنك ضد عمليات القتل الفردي، ألم تحدثني عن فتاوي ابن عثيمين وغيرهم من أن هذا يضر ولا ينفع؟ وأن الجهاد فرض على كل الأمة الإسلامية جمعاء؟ ماذا بك تشارك معهم بالقتل الفردي الآن؟

أنا لم أشارك مع أحد أنا لا أفهم الأمر، ولا أعي ما يحدث، أحمد ليس إرهابيًا، بل أنه شاب شاعر أتوسم فيه الصلاح.

زوجتي العزيزة ادن مني اجلسي بجواري، فجوارحي ترتعش وجسدي ينتفض.

جلست الزوجة بجواره تحتضنه في جانبها الأيمن، وعلى الجانب الأيسر تحضن صغيرها.

لحظات وهدأت أنفاس الزوج، ثم بدأ يقص على زوجته الحقيقة التي يعرفها، ولا يعرفها أحد غيره.

أحمد سالم منذ نعومة أظفاره كان كثير الإمساك بالقلم، كانت لعبته المفضلة، بل كان صديقه الوحيد.

خربشات كثيرة داعب بها أوراقه، وحائط بيتهم، بل كان يحنو على جسده بتلك الخربشات.

بعد عدة أعوام ومع نضوج عقله تحولت تلك الخربشات إلى أحرف، وكلمات نظمت؛ لتكتب شعرًا ونثرًا.

عندما وصل إلى سن العاشرة خاف عليه والده السيد سالم من العدوان الصهيوني؛ حيث أن بلدته متاخمة لإحدى المستوطنات اليهودية؛ لذا تم ترحيل كلَّ مَنْ بالبلدة جبرًا أو قتلا.

لذا تم تهريبه مع جاره السيد ميخائيل، الذي فضل أن ينجو بحياته إلى دولة الأردن، عن طريق الأنفاق بين مصر وغزة ومنها إلى الأردن.

اعتني السيد ميخائيل بأحمد جيدًا؛ كان أحمد يعيش مع أسرة السيد ميخائيل داخل إحدى الأديرة بالأردن.

سبب أحمد كثيرًا من البلبلة داخل جدران الدير، خاصة في الحوارات الجانبية بين الرهبان.

فكيف لمسلم أن يترعرع بين أروقة الكنيسة؟ بعد عدة أعوام ماذا سيعتنق؟ بل لو علم المسلمون في الخارج أن بالدير مسلمًا ينمو بينهم بالتأكيد سيقال إنهم سيخرجونه من دينه؛ ليعتنق دين الكفر.....

السيد ميخائيل في موقف حرج!

اقترح السيد ميخائيل بتغيير اسمه من أحمد إلى عماد...

وتم إلحاقه بالمدرسة الخاصة بهم؛ علموه العلوم الدنيوية كالرسم الموسيقي والأدب والشعر، ابتعدوا عن كل ما يخص العلوم الدينية لا مسيحية ولا إسلامية.... عاش غريبًا بينهم....

عندما وصل إلى سن الثامنة عشر، أراد العودة إلى بيته؛ ليبحث عن عائلته، عن أرضه.

كان الشيء الوحيد الذي استمتع به وبغربته داخل جنبات الدير المتسع، حكايات السيد ميخائيل عن فلسطين والقدس، عن والد أحمد السيد سالم، عن جهاده، عن الدفاع عن أرضه وعرضه، عن بطولاته.

كل تلك الحكايات كانت كفيلة بأن يعود أحمد مرةً أخري إلى أرضه وسمائه، إلى التراب الذي سيحيي ويدفن فيه.

obeikan.com

عاد من جديد إلى غزة، إلى القطاع، إلى ما تبقي من دولة فلسطين، لكنه لم يجد بلدته؛ تحولت إلى مستوطنة يهودية بعيدة كل البعد من أن تصل أقدامه إليها.....

انخرط في خربشته من جديد؛ كلماته تحولت لشعر.... لقصص.... لخواطر.

كانت مخرجه لما يجول من أفكار تتصارع داخل عقله..

في إحدى المرات خانته أقلامه، كتب أبياتًا من الشعر، كان يُعبُر بها عن علاقة الحاكم بالمحكوم؛ عبر عن أول جلسة بين الحاكم والمحكوم؛ بين الله والشيطان؛ أظهر بعض التعاطف مع الشيطان، اعتقد أن الشيطان ظُلم، ولم يكن له حيلة في قبول الأمر، لم يدرك أن الغرور والتكبر علي الله وآياته كفر وإلحاد.

نشر العمل على صفحته بموقع التواصل الاجتماعي الفيس بوك، فله آلاف المتابعين من جميع الدول العربية؛ لما له من كلمات تمس القلب تارةً تعطف عليه، وتارةً أخرى ترميه بسهام تجرح ولا تقتل.

وكالعادة مع أولي لحظات إشراقة كلماته على صفحته؛ وجد سيل من الإشعارات تبعث البهجة في قلبه كل مرة.

لكن هذه المرة جاءته رسائل كثيرة.

امسك الهاتف يتفقدها، تفقد الرسائل رسالة تلو الأخرى.

استوقفته ثلاث رسائل، جعلت عقله ينشط، بل حولته لشخصٍ آخر....

الرسالة الأولي كان محتواها:

صديقي أحمد أهلا بك في عالمنا اللامنتمى، لقد قرأنا ما كتبت، لقد زاد انبهاري بك وبعقلك وفكرك، وجدت تعاطفك مع الشيطان؛ فنعم القول والفكر منك، فلقد ظُلم ولايزال يُظلم، أريدك أن تنضم إلينا، إلى عالمنا؛ لتكون فردًا بل ملكًا في عالمنا الشيطاني.

obeikan.com

الرسالة الثانية:

ماذا تقول، وماذا تعتقد، إنك لفاجر، فاسق، زنديق، كافر بالله وبشريعته؛ فلتعلم أنك في أسفل الجحيم في الآخرة وروحك ستزهقها أيدينا بإذن الله.

الرسالة الثالثة:

صديقي العزيز، لقد قرأت ما كتبت، ودائما أطالع ما تكتب؛ فأنا من أشد المعجبين بقلمك،

كلماتك خيالية فاقت الوصف؛ لكنها قد خانتك اليوم؛ فمفهوم ما كتبت أمر مخالف لما تعلمناه في ديننا، وقرأناه في قرآننا، إن كنت تعي ما تقول فهذا أمر مذموم، وإن كنت لا تعي فباب التوبة مفتوح للجميع، وأنا على يقين من أنك لا تقصد القول، أو تتعاطف مع من استوعد البشر بالضلال وتكبر علي الله وخلقه، أرجو منك أن تراجع القول مع من يفقه في دين الله، أعزك الله بالإسلام.

obeikan.com

أغلق أحمد هاتفه وابتعد عنه، وفي جانب الحجرة الصغيرة، جلس على مقعد طالما شهد على حالات انكساره، واضعًا رأسه بين ركبتيه مرتعدًا جسده خائفًا....

تحول إلى ملحدٍ وكافرٍ، بل هناك من يريد قتله.

حاول جاهدًا أن يستعيد قواه، وأن يستفيق؛ كي يعاود عقله التفكير؛ بعدما شلت أفكاره بسبب الخوف، حاول أن يعي مكنون إيمانه....

هل هو مؤمن مسلم؟ أم مسيحي؟ أم ملحد؟، أم ماذا بقلبه تجاه الله.؟

ماذا يوجد بقلبه تجاه الله، هو يعلم أن هناك إله ولابد من توحيده، لكنه لم يطالع أو يتعلم كيف يعبده، وكيف يصل إليه، وما هي الكلمات أو التصرفات والأفعال التي قد تبعده حقًا عنه، دون أن يشعر، بل أن يكون واثقًا أنه سائر باتجاه الله، لكنه قد يكون في اتجاه الشيطان،

لكن عقله مترفعًا عن التفكير؛ فسلب منه قوته وترك جسده ينهار....

في الصباح وقبل أن يغتسل؛ جلس أحمد أمام حاسوبه؛ يطالع المواقع الدينية بشغف كبير.

يحاول أن يعي كل ما كُتِبَ في الأديان السماوية، عن حديث الله مع الشيطان، وكيف تحدثت اليهودية والمسيحية والإسلام.

وجد في المسيحية آية تقول "وَأَنْتَ قُلْتَ فِي قَلْبِكَ: أَصْعَدُ إِلَى السَّمَاوَاتِ. أَرْفَعُ كُرْسِيِّي فَوْقَ كَوَاكِبِ اللهِ، وَأَجْلِسُ عَلَى جَبَلِ الاجْتِمَاعِ فِي أَقَاصِي الشَّمَالِ. أَصْعَدُ فَوْقَ مُرْتَفَعَاتِ السَّحَابِ. أَصِيرُ مِثْلَ الْعَلِيِّ" (سفر إشعياء 14: 13، 14) والعلي هو الله

وفي اليهودية وجد

في أحد نصوص الهاجاداة ـ وهي مجموعة شروح على هامش التلمود دونت في القرون الأولى للميلاد من أجل تقريب المعتقدات التلمودية إلى ذهن عامة الناس من خلال أسلوب القص المشبع بالميثولوجيا .

لدينا رواية مشابهة عن عصيان الملاك الرئيس المدعو ساتان للأمر الإلهي. فبعد أن خرج آدم إنسانًا تام التكوين من يد الخالق، أمر الرب كل الملائكة أن يسجدوا لآدم ففعلوا، وكان رئيسهم ميكائيل أول الساجدين؛ لكي يضرب للآخرين مثالًا في الطاعة والخضوع للأمر الإلهي. ولكن الملاك الرئيس ساتان الذي أضمر الغيرة والحسد لآدم، رفض السجود قائلًا للرب: لقد خلقتنا من ألقك وبهائك، فكيف تأمرنا أن ننطرح أمام من خلقته من تراب الأرض؟ فأجابه الرب: ومع ذلك فإن تراب الأرض هذا يفوقك حكمةً وفهمًا. وهنا تدخل ميكائيل وألح على ساتان قائلًا: إذا لم تبجل آدم وتخضع له عليك أن تتحمل عاقبة غضب الرب. فأجابه ساتان: إذا صب غضبه على سوف أرفع عرشي فوق النجوم وأغدو ندًا للعلي. فلما سمع الرب منه ذلك أمسك به ورماه خارج دائرة السماء، فهوى نحو الأرض. وتبعه حشد من الملائكة الذين شجعهم تمرده على إظهار ما كتموه في أنفسهم من حسدٍ لآدم ورفضٍ لسموه عليهم. ومن تلك اللحظة صارت عداوة بين الشيطان والإنسان.

وفي القرآن وجد في سورة الأعراف:

((وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ السَّاجِدِينَ (11)

قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (12) قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (13) قَالَ أَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (14) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (15) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (16)ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ(17) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَّدْحُورًا ۖ لَّمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكُمْ أَجْمَعِينَ (18) وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (19) فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (20) وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ (21) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ

وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ (22))

بعد مرور ساعاتٍ أوشك النهار أن يغادر، دون أن يغادر أحمد حاسوبه، بل دون أن يغتسل، الوقت يمر وكثير من المعلومات تتدفق داخل عقل أحمد، تتصارع فيما بينها لعله يعي حقيقة إيمانه، ومع اقتراب منتصف الليل بدأت ملامح الحقيقة تظهر أمام عينيه، أمسك هاتفه ودارت مناوشات كثيرة بينه وبين الرسائل المنهمرة عليه في الهاتف.

لكن المحادثات الثلاث صمدت أمام عقله.

فتح الرسالة الأولي؛ رسالة الترحيب به في قوم الإلحاد؛

بعث له رسالة قال فيها:

لا أعلم بماذا ابدأ حديثي معك، بالسلام أم بالترحيب أم بالزجر، حتى كلمة سيدي لن ينطقها لساني فلن يكون سيدي شيطان يخطو على الأرض.

قرأت كثيرًا عنك وعن معتقداتك من صفحتك، أو ما تعتقد في كتابات خُطت بحروفٍ شيطانية على الشبكة العنكبوتية، كثير من الجدل لا فائدة منه أسأل الله أن يهديك فلا مكان لكم عندي.

اسمي أحمد، ديني الإسلام، وأنتم غير مرحب بكم على صفحتي. سأحظرك فتح الرسالة الثانية من الشخص الذي يود قتله، بدأ بمراسلته بالسلام:

السلام عليكم سيدي..... جاءه الرد:

. لا سلام لك عندي..

. سيدي ماذا تقول اسمي أحمد وديني الإسلام....

. عن أي إسلام تتحدث، عن دين برئ منك وممن تعتقد.

. لا سيدي أنا مسلم من أب وأم مسلمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله.

. إن الله لبرئ منك أيها الكافر الفاسق الفاجر.

. أنا لست بكافر، أنا لست بكافر أرجوك أريد ان أفهم لماذا تقول هذا؟ إن لي توبة.

ـ لقد انتهي الحديث بيننا لعنك الله، استعد للموت على أيدينا في أي لحظة.

يبدو بأن محاولات أحمد لفهم الأمر من هذا الرجل قد باءت بالفشل.

لم يدم الوقت طويلًا علي أحمد، كي يستفيق ولا ينغمس في خوفه من تلك الكلمات، بل على الفور قام بفتح الرسالة الثالثة، وبدأ في محادثة الرجل ليخبره: سيدي لقد أنهك فكري وقواي؛ سيدي أريد منك أن نلتقي كي تخبرني الكثير، عن الإسلام أريد أن أتوب عن فعلتي أليس لي بتوبة.

انتظر أحمد كثيرًا ولم يصل إليه أي رد.

بعد مرور قرابة الساعتين عند حلول صلاة الفجر، رن هاتفه معلنًا وصول رسالة.

هنا نظر أبو مازن إلى زوجته وأطفاله، والدمع يسيل من عينيه؛ ليخبرهم بأنها كانت رسالته إلى أحمد. لقد كان هو أبو مازن صاحب الرسالة الثالثة...

انخلع قلب أحمد لصوت الرنة؛ على عجل فتح الرسالة وقرأ ما فيها.

ابني العزيز أحمد، كانت هذه بداية الرسالة.

سال الدمع من عينه، لما وجد فيها من كلمات تحتضن أنفاسه.

مسح الدمع من عينيه؛ كي لا يمنعه من رؤية باقي الرسالة وجاء فيها:

لقد قرأت رسالتك وشعرت أن قلبك بدأ يهتدي لكنني لست ذا علم حتى أجادلك في كل تلك الأمور.

رد عليه أحمد أنا لن أجادلك فأنا على يقين من أنك ستجعلني أتوب.

ابني العزيز، لكل مقام مقال، فأنا لست بعالم كي يؤخذ من فمي الفتوي، صحيح أنني أفقه الكثير وأتعلم، لكنني لست مؤهلا لذلك الأمر، ألم تسمع قول الصحابة الذي يقول: (أجرأكم على الفتوي أقربكم لدخول النار).

رد عليه أحمد برسالة:

لا لـم أسـمعه فأنـا تعلمـت في مكـان بعيـد كـل البعـد عـن الإسـلام وتعاليمه.

ولدي الحبيب أحمد مهما طال بنا العمر، فلن نتعلم كل شيء فالعلم بحر بلا شـطآن؛ لـذا أنصحك أن تـذهب إلى مفتي القدس في المسجد الأقصى، وتتعلم منه وتطالع الكتب التي في مكتبة الأقصى؛ لعلك تجد ضالتك وتكون كتاباتك في سبيل الله ورسوله.

رد عليه أحمد قائلا:

سيدي كم كنت أتمناك أبي؛ لقد لمست من كلماتك الطمأنينة؛ لذا سأخبرك كل شيء عني.

واصل أحمد إرسال الرسائل؛ كي يشرح لأبي مازن كلَّ شيءٍ عن حياته؛ لمس فيه الضعف والقوة، لمس فيه الإيمان بالرغم من جهله بالكثير عنه، وجد رجلًا صلبًا، لم يعطِ أحمد للوقت فرصة أن يخدعه؛ على الفور بدأ يستجمع قواه، بدأ يبحث كيف السبيل في أن يصل للقدس.

لم تمر ساعات كثيرة حتى جمع شتاته وعزم على الرحيل...

في صباح اليوم التالي حزم أمتعته، حقيبة صغيرة حملها على ظهره، حمل فيها آماله وطموحاته، بل حمل فيها توبته...

كثير من المعابر، كثير من إجراءات التفتيش، وربما لا يستطيع الوصول أو ربما يُعتقل.

لكن الإصرار في قلبه كان أكبر من أي صهيوني.

سار على قدمه أميالًا، شعر بأن جسده ذاد قوةً إلى قوته...

بدأ بإرسال رسائل وصور إلى السيد أبي مازن بكل تحركاته، بمشواره نحو الحقيقة....

أنا أحمد سالم، أحادثك في مشواري نحو القدس، أقترب من أول معبر؛ حيث تتواجد مجموعة من العربات المدرعة، بداخلها جنود الصهاينة، يقفون على بعد أمتارٍ من المعبر الأول، سأتقدم إليهم فكما تعلم أنني أعمل في الجانب الآخر، ومعي تصريح للمرور من هذا المعبر.

تقدم أحمد باتجاه الجنود قبل أن يصل إليهم، وعلى مسافة بضع أمتار استوقفوه، طلبوا منه من خلال مكبر الصوت أن يرفع يده فوق رأسه، وأن يُلقي حقيبته بعيدا عنه.

عندما همَّ برفع يده لأعلى إذ بطلقات تخترق جسده.

طلقات من خلفه وليست من أمامه؛ طلقات أصابته من جانب وطنه، ولم تصب أي عدو لوطنه.

ارتمي أحمد خائر الجسد على الأرض، ارتمي على الأرض التي دافع عنها أبواه، ارتمي غارقًا في دمائه، يروي بها تراب وطنه، متحسرًا على توبته، التي تمناها، لكنه لا يعلم ــ عن جهل ــ أن الله قد يكون قبل توبته، ارتمي وعيناه تطالع الملثم وهو يفر؛ ملثم بوشاح فلسطيني؛ يجري مهرولًا بعدما قتلته رصاصة الغدر في ظهره، استجمع ما تبقي له من قوة، ونظر على الجانب الآخر، نظر إلى جنود العدو، رآهم يختبئون مذعورين، والرصاص يتطاير منهم في الهواء، رآهم يندسون من جديد في ثكناتهم...!

مات وذاع صيته، لكن صيته اختلف فيه البشر؛ الصهاينة اعتبروه إرهابيًا، وتم الإعلان في دولتهم أن الجنود قتلوه.

وفي بلاده عُرف بأنه قُتِل على أيدي الجماعات المسلحة؛ نظرًا لألحاده، وأنه كان ذاهبًا إلى الصهاينة؛ كي يجد عندهم ملجأ من بني الإسلام.

لكن الله شاهدًا على ما كان في قلبه.

تمت

obeikan.com